وأحسبها هي التي أخذ اليهود – في عصرنا هذا – يستعملونها مع العرب تحت شعار « التطبيع » إذ ليس التطبيع على مستوى العلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية إلا استدراجًا لقبول اليهودي على ما هو عليه من كفر وجحود للحق على نصاعته .

٣- السبب الثالث : هو الترف وقد تحدثنا فيه كثيرا، وإنما نتحدث عنه هنا كسبب للتولي و النكوص، قال القرطبي في تفسير قوله تعالى :﴿ **فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ** ﴾[البقرة :٢٤٦] : « أخبر تعالى أنه لما فرض عليهم القتال ورأوا الحقيقة ورجعت أفكارهم إلى مباشرة الحرب وأن نفوسهم ربما قد تذهب « تولوا » أي اضطربت نيتهم وفترت عزائمهم وهذا شأن الأمم المتنعمة المائلة إلى الدعة تتمنى الحرب أوقات الأنفة فإذا حضرت الحرب قعدت وانقادت لطبعها، وعن هذا المعنى نهى النبي ﷺ بقوله : « لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإذا لقيتموه فاثبتوا » ثم أخبر الله تعالى عن قليل منهم أنهم ثبتوا على النية الأولى واستمرت عزيمتهم على القتال في سبيل الله »[١] .

وخلاصة القول ـ في هذا المبحث ـ أن الأقلية هي التي تتصف بخلق الثبات و الصبر على المكاره والشدائد والبلايا، وبذلك يتحقق لها النصر على الأعداء والانتصار على النفس والشيطان، أما الأغلبية، فعلى العكس من ذلك، والسبب في تولي الأغلبية وانتكاسها اتباع خطوات الشيطان واستدراج الكفار والتأثر بسلبيات الترف .

* * *

● المبحث الرابع : الأمانة والصدق صفة للأقلية :

حفظ الأمانة خلق إسلامي وإنساني رفيع، عليه تقوم الحياة السوية في وجوهها السياسية والاجتماعية، وبغياب الأمانة تحل الخيانة التي تخرب البلدان

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٣ / ٢٤٥

والمؤسسات الدولية، بل تخرب البيوت، وتهدم الأسر، والخيانة صفة تعم الذنوب الصغيرة والكبيرة، اللازمة والمتعدية، كما أن الأمانة كذلك.

وقد اعتنى القرآن الكريم بهذا الجانب السلوكي السامي عناية كبيرة، فنبه على ضرورة الأمانة لإقامة المجتمع السوي، وحذر من عواقب الخيانة في هدم المجتمعات فقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾[الأنفال:٢٧]، فالخيانة محرمة مطلقا سواء لكتاب الله أو لسنة رسوله ﷺ أو الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد[١]. ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ** ﴾ [الأنفال:٥٨].

والخيانة التي تشير إليها الآية السابقة، يذكر المفسرون لها سببًا، يبين أنها تدخل في المجال السياسي والحركات الدبلوماسية، التي كانت تجري في المدينة المنورة عندما كان اليهود يكيدون كيدهم للرسالة الجديدة، حفاظا على كيانهم، ولو كان مبنيًا على الباطل، أخرج ابن كثير عن الزهري أن رسول الله ﷺ لما حاصر يهود بني قريظة طلبوا الصلح فأمرهم أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فقالوا أرسل لنا أبا لبابة فبعثه رسول الله ﷺ إليهم فقالوا يا أبا لبابة ما ترى ؟ أننزل على حكم سعد ؟ فأشار إلى حلقه يعني أنه الذبح، قال أبو لبابة: والله مازلت قدماي عن مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله، فقال: لا والله لا أذوق طعاما ولا شرابًا حتى أموت أو يتوب الله علي، وانطلق إلى مسجد المدينة فربط نفسه في سارية منه، فمكث كذلك تسعة أيام حتى كان يخر مغشيا عليه من الجهد، حتى أنزل الله توبته على رسوله فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه، وأرادوا أن يحلوه من السارية فحلف لا يحله منها إلا رسول الله ﷺ بيده فحله، فقال يا رسول الله إني كنت نذرت أن انخلع من مالي صدقة فقال يجزيك الثلث أن تتصدق به[٢].

---

(١) الصابوني: صفوة التفاسير ١/٥٠١

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢/٣٠٠

هذا المثال يبين كم كان المؤمنون زمن رسول الله ﷺ يقدرون الأمانة ونقلها والخيانة وآثارها على المجتمعات .

ولاشك أن الأمانة سلوك قليل من يحافظ عليه، وأن الخيانة سلوك كثير من يقوم به كثرة الدوافع السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية وغيرها .

والنص الذي بين أيدينا يبين ذلك، قال تعالى :﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ** ﴾[المائدة :١٣]، هذه الآية وردت في سياق يتحدث عن بني إسرائيل، ويبين مواقفهم من العهود والمواثيق، ليصل إلى أنهم نقضوها وحرفوها وتناسوها، وبذلك ثبتت خيانتهم العظمى، واستثني الأقلية منهم فقط .

وتعبير القرآن ﴿ **وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ** ﴾ [المائدة : ١٣] يبين صفة الديمومة و الاستمرار على الخيانات المتكررة من طرف بني إسرائيل خاصة، والكفار عامة، إذ العامل المشترك بينهم هو الكفر، مما يجعل الخيانة سلوكًا طبيعيًا يتماشى مع نيتهم واستعدادهم الاجتماعي والتربوي، قال ابن كثير: تركوا العمل بكتاب الله فصاروا إلى حالة رديئة فلا قلوب سليمة ولا فكر مستقيمة ولا أعمال قويمة (١) .

لقد توطنت نفوسهم على الخيانة لكتاب الله وأعمال الرسل، و الصالحين من عباد الله، فلم ينج من هذا الخلق الرديء إلا القليل منهم .

وهكذا يتضح لنا أن الأقلية فقط هي التي تحافظ على الأمانة فتؤدي ما أوجب الله عليها من مواثيق وعهود، وتطيع الرسل في كل ما وعظوا به من خير وما نهوا عنه من شر، وتقتدي بكل الصالحين في الأعمال التي ترضي الله لما فيها من خير للإنسانية .

---

(١) تفسير القرآن العظيم :٢/ ٣٣

و المفسرون يرون أن هذه الأقلية هي من أسلم منهم[1] ، والواقع أن الوصف شامل لليهود وغير اليهود في كل زمان، إذا التجربة البشرية تفيد أن الأمم كلها تحتوي على أقلية من مجتمعاتها تحافظ على الأمانات، وبذلك يصلح حالها الاقتصادي و الاجتماعي و العمراني على الأقل، ودول الغرب الآن خير دليل على ذلك .

إن حفظ الأمانة العامة التي هي مهمة الإمام الأكبر، و رئيس الأمة بالمصطلح الحديث، من شأنه أن يحمل الرعية ـ كلا على حسب مسؤولياته ـ على احترام الأمانة التي أنيطت بعنقه، إما طواعية إن كان صاحب ضمير حي وتقوى، وإما خوفا وكرها ليحافظ على منصبه في المسؤولية التي أوكل إليه أمرها .

و الحديث الشريف الذي رواه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال:

« كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله و مسؤول عن رعيته، و المرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها و الخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته »[2] ، فيه دلالة قطيعة على تحمل الأمانة و السهر عليها أمر عظيم في الإسلام، ولعل الحديث الذي بوب له البخاري في صحيحه تحت عنوان « هلاك أمتي على يدي أغيلمة سفهاء »[3]، يدل على أهمية الأمانة الكبرى وضرورة تجنب وضعها بين أيدي السفهاء، لأن تسيير شؤون الدولة ليس أمراً سهلاً، إنما هو مسؤولية عظيمة تتطلب رجالاً أكفاء يتمتعون بتجربة في التسيير ورجاحة في العقل، وروية في القضاء أمراً ونهياً ومنعا وإباحة، فإذا أسند الأمر لغير أهله فلا بد أن ننتظر هولاً يشبه قيام الساعة، وبمعنى آخر هلاكا مقترنا بضياع الأمانة، و لذلك كانت الأحاديث التي تنبه المجتمعات على خطورة إسناد الإمارة لمن لا يستحقها كثيرة: قال رسول الله ﷺ

---

(١) صفوة التفاسير: ٣٣٣

(٢) حديث كلكم راع/ صحيح البخاري: /١/٣١٣

(٣) صحيح البخاري : ج٤-ص٣٥٧

فيما رواه البخاري: «ما من عبد استرعاه الله رعية فلم يحطها بنصيحة إلا لم يجد رائحة الجنة»[1]، وقال: «ما من وال يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم، إلا حرم الله عليه الجنة»[2]، وقال: إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء وذكر منها: إذا كان المغنم دولا والأمانة مغنما، وكان زعيم القوم أرذلهم، وأُكرِم الرجلُ مخافة شرِّه[3].

وإسناد الأمر للسفيه لا يختلف عن إسناده للمرأة إذا لم تحنكها التجربة ولم يرفعها لذلك أسباب موضوعية، كالتي رفعت بلقيس إلى العرش، ولعل ذلك هو مغزى حديث رسول الله: ﷺ لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة[4]، فهذا الحديث ليس قدحًا في المرأة ولا انتقاصًا من قيمتها، لأن موازين التقدير في الإسلام قائمة على التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[الحجرات:١٣].

وإنما الحديث بيان للقدرة على تحمل الأمانة، ولذلك عبر بالفعل: (يفلح)، مسندا إلى القوم، فالقوم هنا بمعنى المجتمع، وهو مسؤولية كبرى يعجز عنها كبار الرجال الذين حنكتهم التجربة وصقلتهم الحياة فضلا عن المرأة التي لا تسمح لها طبيعتها بأن تعيش تطورات الأحداث المختلفة في الحياة المعقدة، مما يجعلها غير مهيأة لتسيير شؤون الدولة أو الإمارة، ومن ثم كان قول الرسول ﷺ دالا على نفي الفلاح على المجتمع الذي يضع مقاليد الأمور بيد المرأة و السفيه على حد سواء.

فهلاك الأمة وخسرانها مرتبطان بضياع الأمانة العظمى، حتى لكأنك تستطيع التنبؤ بسقوط دولة متى رأيت الأمانة قد وضعت في غير موضعها، والرجال في ذلك كالنساء قيمتهم بحنكتهم وقدرتهم وبما يعرفون.

وقد ذكر ابن خلدون أن شروط الإمامة أربعة: العلم والعدالة والكفاية

---

(١) صحيح البخاري: ٤/ ٣٧٦-٣٧٧

(٢) صحيح البخاري: ٤/ ٣٧٦-٣٧٧

(٣) الترمذي: الجامع الصحيح: ٤/ ٤٢٨

(٤) صحيح البخاري: ٤/ ٣٦٧

وسلامة الحواس والأعضاء مما يؤثر في الرأي والعمل[1]، لنتبين من هذه الشروط الأسباب التي تؤدي إلى حفظ الأمانة والقيام بها على الوجه الذي يليق بها .

والقرآن الكريم يحدد لنا الصفة التي استحق بها نبي الله يوسف عليه السلام الإمامة، يقول الله تعالى: ﴿ **وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** ﴾ [يوسف: ٥٤-٥٥] ، فالملك لم يستخلص يوسف للمسؤولية التي أولاه إياها إلا بعد أن عرف أنه أمين، فبالأمانة استحقّ صفة « التمكين » في خزائن الأرض، فهو مؤتمن على كل شيء »، لأنه « حفيظ »، قبل كل شيء ثم « عليم » بعد ذلك، ومعنى كونه « حفيظا »، أنه لا يضيع الأمانة العظمى التي استودعها عنده السلطان، ومعنى كونه « عليما » أنه مدرك لوجوه التصرف في ما ائتمن عليه من شؤون الأمة، وقد مر بنا أن العلم من شروط الإمامة والولاية، قال ابن عاشور: « المكانة تقتضي العلم والقدرة إذ بالعلم يتمكن من معرفة الخير والقصد إليه، وبالقدرة يستطيع فعل ما يبدو له من الخير، والأمانة تستدعي الحكمة والعدالة، إذ بالحكمة يوثر الأعمال الصالحة ويترك الشهوات الباطلة، وبالعدالة يوصل الحقوق إلى أهلها »[2] .

إن القرآن الكريم حين يكرر صفتي الإمامة الصالحة أو الولاية السرية بقول الله: ﴿ **مَكِينٌ أَمِينٌ** ﴾[يوسف: ٥٤] وقوله ﴿ **حَفِيظٌ عَلِيمٌ** ﴾[يوسف: ٥٥] إنما ليبين قيمة الأمانة كصفة جوهرية في اختيار المسؤول حينما تدعم بقيمة (العلم)، وهما صفتان يقل في الناس من تتوفر فيهما، فالآية تبين أن يوسف عليه السلام « اتصف بصفتين يعسر حصول إحداهما في الناس بله كلتيهما، وهما الحفيظ لما يليه والعليم بتدبير ما يتولاه ... صفة الحفظ المحقق للائتمان، وصفة العلم المحقق للمكانة[3] .

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ١ / ٣٤٢ (٢) التحرير والتنوير: ١٣ / ٨

(٣) المصدر نفسه: ١٣ / ٩

من كل ما سبق يتبين لنا أن الأمانة قوة خلقية عظيمة في حياة الأمم والشعوب وأنها فطرة وعلم لقول رسول الله ﷺ :« إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة »[١] ، وأن الذين ينهضون بها حق النهوض هم الأقلية من الناس، وهذا ما يفسر تحذير الرسول ﷺ من خيانة الأمانة الصغرى أو الكبرى حين قال :« ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة »[٢]، وقال :« ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت ثم ينام نومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المجل – كجمرة دحرجت على رجله فنفضت فتراه منتبراً، وليس فيه شيء، ثم أخذ حصاة فدحرجها على رجله، قال فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحدهم يؤدي الأمانة حتى يقال إن في بني فلان رجلاً أمينا »[٣].

● **وخلاصة القول :**

إن النصوص القرآنية التي تناولت سلوك الأقلية قد بينت أن السلوك الرفيع لا ينهض به من البشر إلا قليل، ويبدو ذلك جليا في النهي عن المنكر، وهو أقوى ـ بلا شك ـ من الأمر بالمعروف، ثم الطاعة لله ورسوله والصالحين من أولي الأمر القائمين على شرع الله، والثبات على الحق والصبر على المكاره والمحن، ثم في النهاية رعاية من استرعته الأمة للأمانة الكبرى والصغرى بوجه حق وإخلاص للدين والأمة التي استرعته في شؤونها كلها، وأن ذلك لا يتم إلا بوضع الأمين المناسب في المكان المناسب.

* * *

---

(١) صحيح البخاري: ٤ / ٣٦٣

(٢) صحيح مسلم: كتاب الإمارة، انظر البخاري : ٤ / ٣٧٦

(٣) الترمذي: الجامع الصحيح ج٤ ص ٤١٢